الحركة الأخلاقية عند (فيليكس أدلر): عرض ونقد

حسن محمد زين الدِّين[1]

ملخّص

موضوع البحث هو الحركة الأخلاقية عند (فيليكس آدلر - Felix Adler)، وهي اتِّجاهٌ فكريٌّ إنسانويٌّ علمانيٌّ، يرفع شعارَ الدعوة إلى الأخلاق الإنسانية، وفصل الأخلاق عن الدِّين، بمعنى أنَّه يُمكن للفرد والمجتمع التحلِّي بالأخلاق الفاضلة من غير الرجوع إلى الدِّين، بل قد يكون الدِّين عائقًا أمام مسيرة التَّطوُّر الأخلاقي للإنسان، وفي الوقت نفسه تؤكِّد الحركة على حيادها في الموقف الميتافيزيقي الدِّيني، وتقبُّلها للأديان والأفكار المختلفة.

إلا أنَّ المباني الفكرية التي تقوم عليها هذه الحركة لا تستقيم بعد المناقشة والنقد؛ إذ لا يُمكن القَبولُ بتعدُّدية الأديان والعقائد وقبولها معًا، على ما بينها من الاختلاف أو التنافي، كما لا يصحُّ معرفيًّا القولُ بعدم إمكان إثبات المسائل الميتافيزيقية باعتبار تعدُّد طرق المعرفة الإنسانية، بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ العلاقة بين الدِّين والأخلاق هي علاقة تكامليّة انسجاميّة، بحيث لا يستغني البحثُ في الأخلاق عن الدِّين نظريًّا وعمليًّا.

الكلمات المفتاحية:

الحركة الأخلاقية، (آدلر)، العلمانية، الإنسانوية، الأخلاق والدِّين.

---

1 - طالب علوم دينية في مرحلة البحث الخارج، ومرحلة الماجستير اختصاص الفلسفة الإسلامية في جامعة المصطفى العالمية - قم المقدّسة.

مقدمة

رَفَعَت العلمانيةُ شعارَ فصل الدِّين عن الحياة، وتدرَّجت تاريخيًّا في مواجهة الدِّين، بدءًا من تجريده من وظيفته السياسية ودوره الاجتماعي، وصولاً إلى تجريده من الوظيفة الأخلاقية، فتَمَّ عزلُه عن إطار الحياة الإنسانية أكثر فأكثر، وتجلَّت الدعوة إلى فصل الدِّين عن الأخلاق في تيارات فكرية تدعو إلى الأخلاق الإنسانية بمعزلٍ عن الدِّين، وتُنادي بأصالة الإنسان حتى في البُعد الأخلاقي، ومن هذه التيارات ما يُعرف بـ «الحركة الأخلاقية» أو «الثقافة الأخلاقية»، التي أسَّسها (فيليكس آدلر) في نيويورك، والتي انتشرت كجمعياتٍ تَتعاطى القضايا الإنسانية الأخلاقية على مبدأ الفصل بين الدِّين والأخلاق، أو بين الإيمان الدِّيني والإيمان الأخلاقي.

ومع أنَّ الحركة تُنادي بحيادها ولا تتبنَّى الخطابَ النقدي الحادَّ للدِّين إلا أنَّها في واقع الأمر تندرج في إطار تحجيم الدِّين وتهميشه وتفريغه من مضمونه الحقيقيِّ، وهنا مَكْمَن الخَطر ووجه الحاجة إلى عرض هذا الاتجاه الفكري وإخضاعه لميزان النقد.

ومن جهةٍ أخرى فالحركة لم تطرح نفسها كفلسفةٍ أو منظومةٍ فكريةٍ متكاملة، إلا أنَّها تقوم على أساس مبانٍ فكريةٍ معرفيةٍ ووجوديةٍ وأخلاقية، ولهذا كان لزامًا علينا تحليلُ المبادئ والمباني التي تقوم عليها، ومحاولة فهم جذور عقائدها وسلوكياتها.

من أهمِّ المباني التي تقوم عليها الحركة الأخلاقية مبدأُ التعدُّدية الدِّينية، وتقبُّل الأديان والعقائد المختلفة، ومبدأ عدم إمكان إثبات القضايا الدِّينية، وقصور الإنسان معرفيًّا عن إدراك ما وراء الطبيعة، ومبدأ فصل الأخلاق عن الدِّين واستغنائها عنه، مع أنَّ هذه المباني الثلاثة ضعيفةٌ أمام النقد والنقاش.

وقد بحثنا في هذا المقال "الحركة الأخلاقية" قاصدين بذلك أمرَين: أولهما التعريف بالحركة

من جهة شخصية مؤسِّسها (آدلر)، والتعريف بمبادئها الفكرية بحسب ما تدَّعيه وتُصرِّح به، والاتِّجاه الفكري الذي تمثِّله، وهذا ما تناولناه في الفصل الأول على أساس المنهج التَّتبُّعي المكتبي. والثاني بيانُ المباني العلمية التي تقوم عليها هذه الحركة -سواءٌ صرَّحت بها أم لا-، ومناقشتها ونقدها وإخضاعها لميزان الحقِّ والباطل، وهذا ما تناولناه في الفصل الثاني من المقال على أساس المنهج العلمي التحليلي. وعلى الله التُّكلان.

أولا: التعريف بالحركة الأخلاقية

1 - (فيليكس آدلر)

البحث معقودٌ للكلام على الحركة الأخلاقية عند (فيليكس آدلر)، لذلك كان من المهمِّ جدًّا التعريف بشخصية صاحب هذا المذهب، قبل الخوض في عرض فكره ونقده؛ إذ كثيرًا ما تتضمَّن الظُّروف الحياتيّةُ الخاصّة، والبيئة الأسرية والاجتماعية، بذورَ الأفكار الفلسفية، فيُوفِّر الاطِّلاعُ عليها إطارًا عامًّا يُعِين على فهم تلك الأفكار بنحوٍ أدقَّ؛ لذلك نعرض باختصار مراحل حياته المبكرة قبل الدخول بتفصيلٍ أكثر في مرحلة تأسيسه للمذهب الأخلاقي.

وُلِد (آدلر) عام 1851م في ألمانيا، وهاجر طفلاً إلى الولايات المتحدة مع عائلته عام 1865م، ليتابع دراسته في «جامعة كولومبيا» في «نيويورك»، ثمَّ في «جامعة هايدلبرغ» في ألمانيا، لينال شهادة الدكتوراة في الفلسفة والإلهيات، وقد توفِّي عام 1933م في الولايات المتحدة.

كان والد (آدلر) حاخامًا، بل كان (آدلر) نفسُه قيدَ الإعداد والتأهيل ليكون حاخامًا يهوديًّا، خاصةً في فترة دراسته في ألمانيا، وبعد عودته إلى الولايات المتحدة تصدَّى للعمل الدِّيني اليهودي في معبد امانوئل في نيويورك، إلا أنَّه لم يستمرَّ طويلاً بسبب أفكاره الدِّينية التجديدية، عمل بعد ذلك بروفيسورًا في الأدب العبري والشرقي في «جامعة كورنل» قبل أن ينتقل لتدريس الأخلاق السياسية والاجتماعية في «جامعة كولومبيا»، وقد بقي في «جامعة كولومبيا» حتى توفِّي عام 1933م[1].

1 - The Editors of Encyclopedia: Britannica, “Felix Adler” & Howard Radest: Toward Common Ground, p.p. 14 -16.

كان لـ(آدلر) دورٌ بارزٌ في الحركات الإصلاحية الاجتماعية في تلك الفترة، كقضية عمالة الأطفال، وقضية القتل الرحيم[1]؛ وبسبب نظرياته الأخلاقية، ومساعيه في سبيل إصلاح الأخلاق الإنسانية، فقد صنَّفه بعض المفكِّرينَ -كقائد أخلاقي- مع (كونفوشيوس) و(سقراط) والمسيح و(تولستوي) و(غاندي)[2].

يُلاحَظ تأثُّر (آدلر) -بدءًا من مرحلة الدراسة في ألمانيا- بـ«المثالية الكانطية الجديدة» (neo-Kantianism)، وأفكار كانط (1804م) الدِّينية النَّقدية، وأهمها مسألتا عدم إمكان إثبات المقدَّس الغَيبيِّ أو نفيه، واستقلال الأخلاق -أو العقل العملي- عن الدِّين[3].

من مؤلَّفاته (Creed and Deed) "العقيدة والفعل" (1877م)، (The Moral Instruction of Children) "التعليم الأخلاقي للأطفال" (1892م)، (The World Crisis and Its Meaning) "أزمة العالم ومعناها" (1915م)، (An Ethical Philosophy of Life) "فلسفة أخلاقية للحياة" (1918م)، و(The Reconstruction of the Spiritual Ideal) "إعادة بناء المثال الروحي" (1923م)[4].

2 - الحركة الأخلاقية

قام (آدلر) عام 1876 م بتأسيس "جمعية الثقافة الأخلاقية" (New York Society for Ethical Culture (NYSEC)) في مدينة نيويورك في فترة ما بعد الحرب الأهلية الأميركية، وهذا شكَّل نقطة انطلاق ما عُرف لاحقًا بـ«الحركة الأخلاقية» أو «الثقافة الأخلاقية»[5]، وهي تمارس نشاطها اليوم على شكل جمعياتٍ منتشرة في مدن وبلدانٍ مختلفة، أهمها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا وسويسرا واليابان والهند.، وتقوم هذه الحركة على أُسس إنسانويةٍ علمانيةٍ، حيث

1 - هنري توماس: بزرگان فلسفه، ص23.

2 - Stuart Brown, Diane Collinson, and Robert Wikinson: Biographical Dictionary of Twentieth-Century Philosophers, p. 7.

3 - Howard Radest: Toward Common Ground, p. 16.

4 - The Editors of Encyclopedia: Britannica, "Felix Adler".

5 - يمكن أن يُشـار إلى جذورٍ أقدمَ للحركة الأخلاقية في أوروبا، لكن الانطلاق الكبير كان على يد (آدلر) في نيويورك؛ ولذلك تَعُدُّ جمعيات الحركة الأخلاقية (آدلر) مؤسِّسًا وأبًا روحيًّا للحركة.

تهتمُّ بالإنسان وقيمته خارج إطار الدِّين والاعتقاد بموجودٍ مقدَّس، وتؤكِّد هذه الحركة على أهمية العنصر الأخلاقي في جميع علاقات الحياة، بقطع النظر عن أي عقيدةٍ دينيةٍ أو فلسفية[1]، ووفقًا لـ «اتحاد الأخلاق الأميركي» فإنَّ الثقافة الأخلاقية هي حركة إنسانية تهتمُّ بالخير الإنساني وبناء علاقاتٍ أخلاقية بين الناس وبالأرض، وهي كمنظمة غير دينيَّةٍ لا تتعنَّى النقاش في وجود الإله وعدمه، بل تحترم التعدُّدية والاختلاف بين أعضائها[2].

قد يُطرح السؤال عن العقيدة الميتافيزيقية لهذه الحركة؟ والجوابُ أنَّ موقفَها الرسميَّ هو الحياد في قضية وجود الإله، فلا تؤكِّده ولا ترفضه، فهي حركةٌ إنسانية حيادية غير دينيَّة؛ يمُكن أن تضمَّ بين أعضائها المؤمنَ (theist) والربوبي (deist) واللاأدري (agnostic) والملحد (atheist)[3]، فلا تتبنَّى هذه الحركة أي عقيدة دينية أو ميتافيزيقية، ولا ما يرتبط بما يصفونه بـ «الأسرار المجهولة للحياة»، كما أنَّها لا تدعو إلى أيِّ إيمانٍ واعتقادٍ بعالمٍ غير طبيعي أو بكائنٍ أسمى، أو إلى الاعتقاد بأيِّ نصٍّ مقدَّسٍ كمصدر للحقيقةً المطلقة، أو بحياةٍ أخرويةٍ أو عالمٍ آخر، كما أنَّها لا تتبنَّى أي شعائر أو طقوس عباديةً[4].

ويُلاحَظ أنَّ هذه الحركة، بحسب دعوى أهلها، تمارس وظيفةَ الدِّين، كما أنَّها تمارس نشاطَها على طريقة الأديان المعروفة؛ إذ تتضمَّن مواعظَ يوم الأحد، وإقامة احتفالات الزواج ومراسم العزاء، وفي كثيرٍ من الجمعيات قائدٌ يتولىَّ إقامة هذه المراسم، بما يشكِّل في مجموعه خليطًا من الوظائف الدِّينية التقليدية مع الأفكار العلمانية، من هنا يمُكِن أن نصف هذه الحركة بأنَّها دينٌ إنسانيٌّ بالمعنى العام للدِّين، الذي لا يتضمَّن اعتقادًا بالبعد الميتافيزيقي (أي ما وراء الطبيعة)، ورغم ذلك، ثمّة نقاشٌ بين أعضاء هذه الحركة وقادتها في وصفها بالدِّين؛ إذ يتجنَّب بعضُهم هذا الوصف بسبب اقتران مفردة الدِّين بالاعتقاد بما وراء الطبيعة والطقوس الخاصة والطائفيّة[5].

1 - The Editors of Encyclopedia: Britannica, “ Ethical Culture”.

2 - The American Ethical Union: Mission and Vision, www.aeu.org.

3 - Howard Radest: Toward Common Ground, p. 2.

4 - Algernon Black: What is an Ethical Society, www.ethicalsocietywestchester.org.

5 - Howard Radest: Toward Common Ground, p. 2 & Algernon Black: What is an Ethical Society, www.ethicalsocietywestchester.org

ما هو موقف الحركة من الأديان التقليدية؟ تنظر «الحركة الأخلاقية» إلى الأديان في إطارٍ تاريخيٍّ، باعتبار أنَّ عقائدها وممارساتها امتداداتٌ للفكر القَبَلي القديم والحضارات البدائية، فقد انبثقت الديانة اليهودية من الحضارات المصرية والبابلية والآشورية، ومن اليهودية انبثقت الديانة المسيحية، كما كان الدِّين الإسلامي امتدادًا لليهودية والمسيحية معًا، لذلك، ترى «الحركة الأخلاقية» أنَّها تطوُّر لهذه الحركة الإنسانية التاريخية، بحيث تحفظ الإيمانَ والقيم الأخلاقية البشرية، متجاوزةً الاعتقادَ بما وراء الطبيعة وقيودَ الانتماء الدِّيني؛ فهي لا تقف في موقف المُعارض للأديان التقليدية، بل تُشارِكُها الاهتماماتِ الأخلاقية التي تُعنى بالإنسان، وتحترم واقع أنَّ كثيرًا من الناس لا يتقبَّلون مبدأ الإيمان الأخلاقي بلا إيمان إلهي؛ لذلك يجد قادةُ هذه الحركة وأعضاؤها أرضيةً مشتركةً مع أتباع سائر الديانات للتعاون في القضايا الأخلاقية.

وفي هذا السِّياق ترفع الحركة شعارَ الحرية الدِّينية، بل الحرية الفكرية، وتدعو إلى تقبُّل الأديان المختلفة؛ فلكلِّ إنسان الحقُّ في اختيار الدِّين الذي يَعتنقه ويقوم بالعبادة على أساسه، كما أنَّه يملك الحقَّ في ألا يَتعبَّد أصلاً، كما ترفض الحركة أن تتبنَّى أو تطلبَ قبولَ عقيدة ثابتةٍ ونهائية، بل تسعى لإبقاء باب البحث عن الحقيقة مفتوحًا. وترى أنَّ البشر سيختلفون دائمًا في تفاسيرهم للحياة، وليس معلومًا إنْ كان جميع البشر سيتفقون يومًا ما على دينٍ عالميٍّ واحد، بل إنَّ ذلك سوف يعني نهايةَ الحرية الدِّينية واختطافَ أحدِ أهمِّ الأصولِ الإنسانيَّة من البشر، وهو التعدُّدية الدِّينية والفلسفية[1].

3 - الإنسانوية العلمانية

يُمكنُ تَصنيف الحركة الأخلاقية عند (فيليكس آدلر) على أنَّها مذهبٌ من مذاهب الإنسانوية العلمانية، بل إنَّ الحركة الأخلاقية لـ(آدلر) أسفرَت عن تأسيس الاتحاد الأخلاقي الأميركي، الذي يُعَدُّ عضوًا مؤسِّسًا لمنظمة الإنسانوية العالمية (Humanists International).

وقد بدأ المعنى الاصطلاحي لكلمة الإنسانوية بالظهور بعد القرن التاسع عشر، حيث صارت الكلمة تدلُّ على مفهومٍ عامٍّ يُعبِّر عن الانتماء الخاص إلى الإنسان[2]، وقد تمَّ تعريف الإنسانوية

1 - Algernon Black: What is an Ethical Society, www.ethicalsocietywestchester.org

2 - محمد هادي طلعتي: الهيومانية، ص21.

كمصطلحٍ حديث -وهو المعتمد في هذه الدراسة- في المصادر العلمية بتعريفات مختلفة، إلا أنَّ العنصر المشترك بينها هو الاهتمام بالإنسان وكرامته وقيمته وأبعاده المختلفة[1]، لذلك، يمكِن القول إنَّ مصطلح «الإنسانوية» يُعبرِّ اليوم عن رؤيةٍ فكرية أساسها هو "محورية الإنسان"[2].

وبملاحظة أنَّ الإنسانوية قد مرَّت بتغيُّرات متعدِّدة قبل عصر الحداثة وبعده، وشكَّلت ركنًا من تركيبات فكريةٍ مختلفة، لذلك، لا ينبغي عدُّها مدرسةً فكريةً مستقلة، وإنما هي اتِّجاهٌ يمكن أن يتداخلَ مع أفكارٍ أخرى في مدارس مختلفة، ولذلك صارت الإنسانوية تعبيرًا عن عنصرٍ مشتركٍ بين مدارس وتياراتٍ عِدَّة، وقد انقسمَت بهذا اللِّحاظ إلى أنواعٍ مختلفة منها الإنسانويةُ الدِّينية، والعلمانية، والإلحادية، والوجودية[3]. وعلى ضوء هذا المعنى العام نَفهم الإنسانوية التي نعتبر الحركةَ الأخلاقية عند (آدلر) أحدَ فروعها وتجلِّياتها.

ينبغي الإشارة إلى أنَّه قد حصل في القرن العشرين تطوُّرٌ تدريجيٌّ في هذا المعنى العام أيضًا، فأصبح أكثرَ تحديدًا لاحقًا، وتجلَّى ذلك بشكل خاصٍّ مع إعلان «البيان الإنسانوي الأول» عام 1933م -وهو العام الذي تُوفيِّ فيه (آدلر)- في الولايات المتّحدة، ثمَّ تأكَّد هذا المعنى مع البيانات الأخرى عام 1952م و1973م و2002م و2022م[4][5].

ويُلاحَظ أنَّ معارضة الدِّين كانت تبرز بنحوٍ أكثر صراحةً وأشدَّ تدرُّجًا كلما تأخَّرت البيانات، إلى أنْ التصق مصطلحُ الإنسانوية بالعلمانية أكثر فأكثر، رغم وجود تيارات من الإنسانوية الدِّينية، وعلى كلِّ حال فإنَّ هذه الإعلانات المتأخِّرة عن (آدلر) كانت مشيرةً إلى السياق العام للإنسانوية، التي تأثَّر بها في حياته وأثَّر فيها لاحقًا من خلال حركته الأخلاقية.

أمَّا العلمانية (Secularism) فهي مصطلح حديث يُعبرِّ -في الجملة- عن الدعوة إلى الابتعاد عن الدِّين وإقصائه عن الأمور الحياتية للبشر، وبعبارةٍ أخرى يدعو إلى فصل الدِّين عن الحياة

---

1 - Steelwater, Eliza, Humanism, p. 641.

2 - محمد هادي طلعتي: الهيومانية، ص.ص. 21-22

3 - Steelwater, Eliza, Humanism, p. 641.

4 - Ibid, p. 645.

5 - إبراهيم الرمّاح: الإنسانوية المستحيلة، ص33 & محمد هادي طلعتي: الهيومانية، ص271.

الإنسانية؛ ورد في «المعجم الفلسفي» تعريف العلمانية بهذا النحو:

«والعلمانية بالإنكليزية (Secularism) وترجمتها الصحيحة اللادينية أو الدُّنيوية، وهي دعوة إلى إقامة الحياة على غير الدِّين، وتعني في جانبها السياسي بالذات اللادينية في الحكم، وهو اصطلاحٌ لا صلة له بالعلم (Science) والمذهب العلمي (Scientism)، وكلمة العلمانية هي ترجمة لكلمة سيكولاريزم (Secularism) الإنكليزية، وهي مُشتقّة من الكلمة اللاتينية 'سيكولوم' (Saeculum) وتعني العالم أو الدنيا، وتُوضع في مقابل الكنيسة [...]، فالعلمانية هي إيدولوجيا تُشجِّع المدنية والمواطنة وترفض الدِّين كمرجع رئيس للحياة السياسية...»[1].

وقد اهتمَّت الإنسانوية العلمانية المعاصرة بشكلٍ خاص بالأخلاق الإنسانية بتأثيرٍ من الآراء والأفكار الأخلاقية لـ(أوغست كونت 1857م - Auguste Comte)، ودين الإنسانية الذي أسَّسه، والذي كان ينطوي على صبغةٍ أخلاقيةٍ كاملة، مع استبعادٍ كاملٍ للدِّين السَّماويِّ الميتافيزيقيِّ[2].

على كلِّ حال تُصرِّح الحركةُ الأخلاقية التي أسَّسها (آدلر)، والتي استمرَّت لاحقًا على هيئة جمعيات أخلاقية متعدّدة في بلدان مختلفة، بأنَّها تدعو إلى الأخلاق الإنسانية، وصلاح المجتمع البشريٍ، وأنَّها لا تتبنَّى موقفًا دينيًّا موافقًا أو رافضًا، وتدَّعي استقلالَ الأخلاق عن الإلهيات، فهي حركةٌ إنسانوية علمانية تقوم على محورية الإنسان في هذا الكون، وتقول بالفصل بين الحياة والدِّين.

ثانيًا: نقد مباني الحركة الأخلاقية

يُمكن إرجاعُ الحركة الأخلاقية التي أسَّسها (آدلر) إلى ثلاثة مبانٍ أساسية في المعرفة (Epistemology) والفلسفة (Ontology) والأخلاق والقيم (Axiology)، كما يُمكن مناقشةُ كثير من القضايا التفصيلية الأخرى التي انتهجتها هذه الحركة، سواءً في البعد النظري أو العملي

1 - مصطفى حسيبة: المعجم الفلسفي، ص.ص. 345-346.

2 - محمد هادي طلعتي: الهيومانية، ص265.

أو السلوكي أو الخطابي، لكن قُمنا باختيار هذه المسائل باعتبارها المبانيَ الأساسية التي تقوم عليها الحركة. ولا يُشترط في المبنى الفكري الذي ننسبه لهذه الحركة أن يكون مُعلَنًا صراحةً من قبل (آدلر) وأتباعه، بل يكفي إثبات توقُّف أفكارهم المُعلَنة التي بيَّناها في الفصل السابق على عقيدةٍ ما حتى تُعَدَّ مبنًى من مبانيهم كما سيظهر فيما يأتي.

1 - التعددية الدِّينية

أمَّا فيما يرتبط بالمبنى الأول فإنَّ دعوى الانفتاح على جميع الأديان، وقبول جميع الأعضاء في جمعيات الحركة الثقافية، التي اتَّخذت بدورها الطابع الدِّيني، بغضِّ النظر عن اعتقادهم الدِّيني والمذهبي، تستبطنُ قَبولَ تعدُّدية الأديان بمعنى عدم وجود دينٍ واحدٍ مطابق للواقع ينبغي السَّعيُ للتوصُّل إليه واعتناقه، وهو ما يَرجع في جذوره إلى القولِ باستحالة فهم الواقع على الأقلِّ في الموضوعات الدِّينية أو الميتافيزيقية، وسنتعرَّض لهذه المسألة بنحوٍ مُستقلٍّ في الأصل الثاني.

كان (آدلر) منذ بدء حركته الأخلاقية والاجتماعية منتقدًا بشدة للإصرار على دينٍ أو عقيدةٍ بعينها، وكان يعتبر أنَّ هذا الأمر إنمَّا ينشأ عن التعصُّب الأعمى، وعن الآفاق الضيِّقة والانقسامات الطائفية والمذهبية[1]، بل صرَّحَت هذه الجمعيات -كما مرَّ آنفًا- أنَّها ترفض أن تتبنَّى أو تطلب قبولَ عقيدةٍ ثابتةٍ ونهائية، بل تسعى لإبقاء باب البحث عن الحقيقة مفتوحًا. وترى أنَّ البشر سيختلفون دائمًا في تفاسيرهم للحياة، وليس معلومًا إنْ كان جميع البشر سيتَّفقون يومًا ما على دينٍ عالميٍّ واحد، بل إنَّ ذلك سوف يعني نهاية الحرية الدِّينية، واختطافَ أحَدِ أهمِّ الأصول الإنسانية من البشر، وهو التعدُّدية الدِّينية والفلسفية[2].

والمُراد من التعدُّدية الدِّينية (Religious Pluralism) قبولُ كثرة الأديان والاعتراف بحقَّانيتها جميعًا، ورفض انحصار الحقِّ في دين واحد، ومقابل التعدُّدية يقف تيارُ الانحصارية في الحق، الذي لا يَقبل تعدُّد الحقَّانية في الأديان، فلا بدَّ من دينٍ أو اعتقادٍ واحدٍ يُطابق الواقعَ فيتَّصف بالحق، وقد تمَّ بيان التعدُّدية الدِّينية بتفسيرات مختلفة، من قبيل عدم انفراد أحد الأديان بالحق وحده، بل توزُّع الحق بينها، فكلٌّ منها مزيجٌ من الحق والباطل، أو القول إنَّ الأديان المختلفة هي

1 - محمد هادي طلعتي: الهيومانية، ص268.

2 - Algernon Black: What is an Ethical Society, www.ethicalsocietywestchester.org

طرق و «صراطات» تُوصل إلى الحق الواحد، أو القول إنَّ القضايا الميتافيزيقية التي لا تخضع للحسِّ والتجربة لا تَقبل النَّفيَ والإثبات ولا تُوصَف بالصِّدق والكذب[1]، والجامع بين هذه التفاسير الثلاثة هو قبول الأديان المختلفة معًا، وعدمُ الترجيح بينها، والذَّهاب إلى حرية الاختيار بغضِّ النظر عن ميزان معرفيٍّ يُقاس إلى الحقِّ والواقع.

لكنَّ المعنى اللازم لمذهب (آدلر)، وأتباع حركته الأخلاقية، أقربُ للمعنى الأخير، الذي يَرجع بجذوره إلى النسبيّة المعرفية، ورفض الحقِّ المُطلَق على الأقلِّ في الجانب الميتافيزيقي، كما أَنَّه التفسير الذي يَنسجم مع مذهب (كانط) -الذي مرَّ تأثُّر (آدلر) به -في المعرفة يقول «إنَّ الشَّيءَ في نفسه غيرُ الشَّيءِ عندنا»، ويرى أنَّ قضايا ما بعد الطبيعة -ومنها قضية وجود الله تعالى- من القضايا التي لا تَقبل الإثباتَ أو النَّفيَ بواسطة العقل النَّظري[2]، ويشهد على ترجيح التفسير الثالث اعتقادُ أتباع المذهب الأخلاقيِّ أنَّ التعدُّدية بنفسها أحَدُ أهمِّ الأصول الإنسانية، أي أنَّهم لا يطلبون واقعًا واحدًا يقصدون كشفَه، كما أنَّهم لا يتقبَّلون جميعَ الأديان التي تشتركُ في بعض المعارف فقط، بل يتقبَّلون جميع الاتجاهات الفكرية حتى التي تصلُ إلى درجة التضادِّ والتنافُر، كالأديان التي تقوم على الإيمان بالغيبيِّ والمقدَّس، والاتجاهات الإلحادية المادية المُنكِرة لكلِّ ما وراء المادة.

كما ينبغي التأكيد في المقام أنَّ التعددية الدِّينية التي تُعَدُّ مبنًى من مباني المذهب الأخلاقي، والتي يُقصَد في المقامِ مناقشتُها ودحضُها ورفضُها تختلف عن التعدُّدية السُّلوكية التي يُقصَدُ بها التَّعايُشُ السِّلميُّ والاحترام المتبادل بين أتباع الديانات المختلفة، وبحث التعدُّدية بهذا المعنى بحثٌ سياسيٌّ أو اجتماعي أو أخلاقي، وليس بحثًا كلاميًّا فلسفيًّا، كما أنَّ (جون هيك - John Hick) الذي هو من أهمِّ المدافعين عن التعدُّدية الدِّينية- يُصرِّح بنفسه أنَّ تحقيق التعايش السِّلمي بين الجماعات هو الغاية من التعدُّدية، لكنه ليس هو التعدُّدية[3].

4 - المناقشة

أُشبعت التعدُّدية الدِّينية نقاشًا في القرن الأخير، وتمَّ بحثُها في علم الكلام الجديد، وفي أبحاث

1 - أحمد ممدوح سعد: التعددية الدِّينية، ص 16-17.

2 -جعفر السبحاني: رسائل ومقالات، ص316.

3 -أحمد ممدوح سعد: التعددية الدِّينية، ص14.

نظرية المعرفة الدِّينية، وليس المقصودُ في المقام بحثَ التعدُّدية الدِّينية بأبعادها المختلفة، أي انطلاقًا من تفسيراتها المختلفة ومبانيها المتعدِّدة، بل المراد مناقشة التعدُّدية الدِّينية كمبنًى من مباني الحركة الأخلاقية لـ(آدلر)، كما بيَّناها في الفقرة السابقة؛ كلُّ ذلك بنحو مختصر يُناسب طبيعةَ المقال[1].

ونذكر أهمَّ الرُّدود التي يمُكِن التمسُّك بها في مناقشة التعدُّدية الدِّينية بهذا المعنى:

1 - في الحقيقة أنَّ القول بتعدُّدية الأديان وقَبولها معًا يَعني نفيَ جميع الأديان جملةً واحدةً، فإنَّ الأديانَ نفسَها لا تقبل التعدُّدية الدِّينية على مختلف تفسيراتها. فسواءٌ فُسِّرت التعدُّدية بأنَّ الأديان ذاتُ جوهرٍ واحد وحقيقةٍ مشتركة، وموارد الاختلاف بينها هي من القشور والفروع، أو بأنَّ القضايا الدِّينية لا تُعبِّر عن واقعٍ أصلًا وأنَّها غير قابلة للإثبات، فإنَّ ذلك خلاف ما تراه الأديان نفسها ويعتقد به أتباعُها؛ لأنَّ كلًّا من المسلم والمسيحي مثلًا يرى دينَه مجموعًا مركَّبًا من العقائد الأصلية والفرعية، ومن الأحكام العملية المرتبطة بالعبادات والمعاملات، ومن جملة من الأخلاق والقيم التي تقع موقع التأكيد من قبل صاحب الدِّين، وتُشكِّل العقائد والأحكام والأخلاق منظومةً مترابطةً فيما بينها، فالمسلم لا يقبل أن يكون التوحيد أو الحجُّ أو الأمر بمحاسن الأخلاق قِشرًا وفرعًا لا يُعبِّر عن حقيقة الدِّين.

بل يمُكِن أن يُقال إنَّ اعتقاد كلٍّ من المتديِّنين بدينهم الخاص يتضمَّن رفضًا للأديان الأخرى والاعتقاد بمخالفتها للحق، فمن يعتنق الدِّين الإسلامي لا يقبل العقيدة المسيحية بالتَّثليث مثلًا، فضلًا عن قبول أحكامها العملية وطُقوسها.

والمقصود أنَّ القول بتعدُّدية الأديان يُساوِقُ نفيَها والقولَ ببطلانها جميعًا، فالأديان التي يقبلها أصحابُ الحركة الأخلاقية ويحترمونها، ويَرون ضرورةَ المحافظة على اختلافها وتنوُّعها، هي غيرُ الأديان التي يعتقد بها المتُديِّنون، والإصرار على هذه التعدُّدية يَستبطن دعوةً لتغيير الأديان وتعديلها، والتوجُّه نحو دينٍ جديدٍ مخالفٍ لسائر الأديان المعروفة، يمُكِن أن نُسمِّيَه دينَ «التعدُّدية الدِّينية»[2].

1 - لا يخفى أنَّ مناقشة الأصل الآتي هو في حقيقته نقضٌ لأحد أهم المباني التي يمُكِن أن يتمسَّك بها القائلون بالتعدُّدية الدِّينية.

2 - عبد الله محمدي ومجتبى مصباح: نظرية المعرفة، ص370.

2 - يستلزم القولُ بالتعدُّدية الدِّينية تجريدَ الدِّين عن فاعليته وتأثيره ونفي وظائفه، وبالتالي تجويفه وتفريغه وتحويله إلى جثةٍ هامدةٍ لا يُنتفَع بها؛ فمن أهمِّ وظائف الدِّين الإجابةُ عن أسئلة البشر المرتبطة بحقيقة الإنسان ومصيره، وهدايتهم إلى طريق السعادة الحقيقية، إلا أنَّ القول بتعدُّدية الأديان، بمعنى عدم تعبير عقائدها المختلفة عن الحق والواقع، يَعني تجريد تلك الأجوبة التي تُقدِّمها الأديان عن أيَّة قيمةٍ معرفية بلحاظ الواقع، كما يَعني أنَّ القضايا الدِّينيَة، التي يُفترض أنَّها تَهدي الإنسان وترشده إلى سعادته، قاصرة عن القيام بهذه الوظيفة، فلا معنى ولا حكاية لها عن طريقٍ واقعيٍّ يُمكِن أن يَسلكه الإنسان طلبًا لمقصودٍ معيَّنٍ هو السعادة، وبعبارةٍ أخرى، إنَّ الطريق المُوصل إلى السعادة سوف يضيع بناءً على القول بالتعدُّدية في خريطةٍ تتشابك فيها مئات الطُّرق، التي يُدَّعى أنَّها موصلةٌ جميعًا إلى المقصود نفسه، رغم اختلاف حقائقها واتِّجاهاتها؛ وهذا ما يُؤدِّي إلى اللازم نفسه المذكور آنفًا، وهو نفيُ الأديان وتغييرها والدعوى إلى دينٍ جديدٍ للبشرية.

3 - يمُكِن إرجاعُ القول بالتعدُّدية الدِّينية إلى أحد أصلين معرفيَّين: الأول هو تعدُّد الواقع والحقِّ، وهو معنى القول بالنسبيّة والشكوكية والسَّفسطة المعرفية، ما يقطع الطريق على تحصيل أيِّ علمٍ سواءً في مجال الدِّين أم غيره.

أما الثاني فهو القولُ بأنَّ المسائل الميتافيزيقية غيرُ قابلة للإثبات والنفي - وهو ما رجَّحناه هنا وما ناقشه في الأصل الثاني- لكنْ يمُكِنُ أن يُنقَض على هؤلاء بالملازمة بين هذا الأصل وما يدَّعونه من قبولٍ لمختلف الأديان والعقائد، ذلك أنَّ لازمَ عدمِ قبول القضايا الدِّينية للإثبات والنفي تُخطِّئة كلِّ الأديان، ولا نَعني بالتَّخطئة القولَ بكذب مُدَّعياتها ومسائلها، لأنَّ الفرض هو عدم قابليتها للنَّفي أيضًا، بل التَّخطئة بمعنى فساد الطريق الذين سلكه المُتديِّنون في إيمانهم واعتقادهم. ومُقتضى الالتزام بهذا المبنى القولُ بأنَّ الأديان هي أوهامٌ وخيالاتٌ نسجها الفكر البشري، وليست تعبيراً عن أيِّ واقع ولا بيانًا لأيَّة حقيقة، وهذا ما يخُالف ما يَعتقد عامّةُ المتديِّنين به، وما تدَّعيه الحركة، وعليه فإنَّ دعوى الحركة الأخلاقية بأنَّها تتقبَّل مختلف الأديان، وتحترم المتديِّنين، لا يَعدو كونَه كلامًا لبقًا ومغالطةً تُستهوى بها القلوبُ.

5 - نفي إمكانية إثبات المسائل الميتافيزيقية

مرَّ في سيرة حياة (آدلر) أنَّه قد تأثَّر منذ شبابه بـ"الكانطية الجديدة» (neo-Kantianism)

وأفكار (كانط) الدِّينية النقدية[1]، خاصةً فيما يتعلَّق بنفي إمكانية إثبات المسائل الميتافزيقية الغيبية، كوجود الإله، أو نفيها وهو المبنى الثاني هنا، وبقضية فصل الأخلاق -أي العقل العملي- عن الدِّين وهو المبنى الثالث[2].

ومن الجَليِّ أنَّ إخراج المسائل الميتافيزيقية، عن دائرة المعنى والجدوائية في البحث العلمي، يُحدِّد شكلَ تعاطي الحركة الأخلاقية وأعضائها مع العقائد الميتافزيقية من جهتين: الأولى ما مرَّ آنفًا من توجُّههم نحو النسبية والشُّكوكية، وبالتالي تعدُّد الأديان وقبول المذاهب الفكرية المتعارضة، فحيث لا حكاية علمية للعقائد الميتافزيقية عن الواقع فلا محذور من قبولها جميعًا والترويج للتعدُّد والاختلاف، دون أن يلزم من ذلك اجتماع الأضداد والنقائض. أما الجهة الثانية فإنَّ نظرتهم هذه للقضايا الميتافيزيقية هي السبب وراء استبعادهم الأديانَ والمذاهب الفكرية الميتافيزيقية عن مجال الحياة، وادِّعاء عدم الحاجة إلى الدِّين في تسيير شؤون الحياة، وكفاية الأخلاق الإنسانية في ذلك.

يفصلُ (كانط) بين دائرتي العقل النظري والعقل العملي، ويقول إنَّ العقل النظري يُدركُ الأشياءَ بنحوٍ خاصٍّ بواسطة البنى العقلية غير الاكتسابية، ولا يُدركُها كما هي في الواقع، ولذلك، يَستبعد الأبحاث الميتافيزيقية -كالبحث عن النفس والإله- عن دائرة البحث العلمي، ويرى أنَّ الميتافيزيقا -خلافًا لعلمي الطَّبيعيّات والرِّياضيات- قائمةٌ على أساسٍ واهٍ ضعيف[3].

ورغم أنَّ مباني (كانط) الفلسفية تختلف عن المباني الوضعية لأمثال: (فرنسيس بيكون 1626م -Francis Bacon) و(جون لوك 1704م - John Locke) و(ديفيد هيوم 1776م - David Hume) و(أوغست كونت 1857م - Auguste Comte)، إلا أنَّه يشترك في النتيجة مع الرؤية المادية التجربية للعالم في سلب العلمية والمعنى عن قضايا ما وراء الطبيعة.

1 - رغم ذلك لا يُعدُّ (آدلر) تابعًا للمدرسة الكانطية الجديدة، إذ إنَّه قد تمسّك بمباني كانط دون النتائج التي وصل إليها، خاصةً في الميتافيزيقا وإثبات وجود المقدَّس عن طريق العقل العملي.

2 - Howard Radest: Toward Common Ground, p. 16 & Stuart Brown, Diane Collinson, and Robert Wikinson: Biographical Dictionary of Twentieth-Century Philosophers, p. 7.

3 -زكي نجيب محمود: موقف من الميتافيزيقا، ص53 & ايمانويل كانط: تمهيدات، ص.ص. 8-9.

فالعقل البشري قاصرٌ عن الخوض في البحث عن المسائل الفلسفية الميتافزيقية، ولا جدوى من البحث عمّا وراء ظواهر الطبيعة وأعراضها، وقد كان (إيمانويل كانط - Immanuel Kant) أبرزَ العلماء العقليين الذين تبنَّوا هذه العقيدة، ونفَوا إمكانية إثبات المسائل الميتافيزيقية أو نفيها[1]، وهذا شكَّل لاحقًا، إثر تبنِّي (آدلر) لهذا الاتِّجاه، مبنًى من المباني المعرفية والفلسفية للحركة الأخلاقية التي أسَّسها[2].

6 - المناقشة

والذي يهمُّنا في هذه المقالة هو مناقشة هذا المبنى معرفيًّا، بنحوٍ مختصرٍ، بما يفنِّد أساسًا من الأسس التي قامت عليها الحركة الأخلاقية[3]:

1. الحسُّ أداةٌ من أدوات المعرفة البشرية، وله بطبيعة الحال نطاقٌ يُمكِن أن تَحصل المعرفةُ ضمنه، أمّا خارج هذا النطاق فلا صلاحية للحسِّ في الحكم؛ وعليه فلا يُمكِن للحِسِّ والحِسيِّ أن يكون منشأ الحكم على إمكانية المعرفة الميتافيزيقية إثباتًا ونفيًا، بل لا بدَّ من أصولٍ لا تستند إلى المادة تكون حاكمةً على الماديِّ وغير الماديِّ معًا.

2. إنَّ التجربة والاستقراء لا يُفيدان علمًا يقينيًّا بنفسيهما، وهذا ما يُبحث عنه عادةً في المنطق ونظرية المعرفة؛ إذ مجرَّد مشاهدة مصاديق كثيرة على نحوٍ واحدٍ لا يعني بالضرورة أنَّ سائر المصاديق لها نفس الأثر المشاهَد، بل لا مانع من أن تكون سائر المصاديق التي لم تقع موردًا للمشاهدة ذات خصائص وآثار مختلفة، وبالتالي، فإنَّ الحسَّ يُفيد يقينًا في المعارف الجزئية لا المعارف الكلية والقوانين العامة التي يسعى التجريبيُّون عادةً للتوصُّل إليها واستنتاجها، بل قد يُقال إنَّ غايتهم الأساسية من إقامة التجارب هي الوصول إلى هذه القوانين الكلية.

3. ولمّا كانت المعرفة التجربية نفسُها التي يدعو إليها الاتجاه المادي، والتي يَقصُر الوضعيُّون وصفَ العلم عليها، غيرَ مفيدة للعلم الكليِّ اليَقيني، فإنَّ النتائج التي يُمكِنُ التوصُّل إليها بواسطة

---

1 - علي دجاكام: الفلسفة الغربية برؤية الشيخ مرتضى مطهري، ص163.

2 - Howard Radest: Toward Common Ground, p. 16

3 - بعض النقوض ناظرة إلى الفلسفة المادية خاصةً، وبعضها إلى نظرية المعرفة الكانطية خاصةً، والبعض مشترك يرد على الاتجاهين، والمقصود إثبات إمكان البحث العلمي فيما وراء الطبيعة.

الحسّ والتجربة قائمةٌ في الواقع على أساس الاعتقاد بمبادئ ميتافيزيقية خارجة عن دائرة الحسّ والطبيعة.

مثال ذلك: قانون العلية أو مبدأ عدم اجتماع النَّقيضَين، فالإثباتات التجريبية متأخّرة رتبةً عن مجموعةٍ من القضايا غير التجريبية التي يُصدِّق بها العقل عن طريق آخر غير الحِسّ، ولولا هذه القضايا لما أمكنه أن يُصدِّق بنتائج التجربة وتعميمها والاعتماد عليها كقوانين[1]. لذلك، يمُكن التعبير عن أيِّ نتيجة تجريبية كلية أنَّها وليدةٌ قياس مُركَّب من مقدِّمات حِسِّية وعقلية، فلا بدَّ في ختام التجربة والملاحظة من الاستفادة من قوانين عقليةٍ كلِّية سابقةٍ على التجربة من قبيل قانون العلية والسنخية والضرورة، حتى يُعلَم أنَّ الأثر الملاحَظَ ليس أخصَّ من طبيعة المؤُثِّر، فينتقل الذِّهن البشريُّ إلى تعميم النتيجة واعتبارها قانونًا، ووصف أحد الطرفين بالعلة والآخر بالمعلول[2].

4. بناءً على النقاط الثلاث الأولى يَثبت وجود قضايا عقلية لا تَستند إلى الحسِّ، بل حاكمةٌ عليه -وهذا ما يقبله (كانط)-، وبالتالي، لماذا لا تكون هذه المبادئ العقلية مستنَدًا في مناقشة قضايا ما وراء الطبيعة كوجود الله وصفاته؟ وبعبارةٍ أخرى نسلِّم أنَّ الحسَّ قاصرٌ عن البحث في الميتافيزيقا، بل لا يصحُّ له الحكم فيها، لكنْ إذا ثبت وجود مبادئ عقلية عند الإنسان غير صادرةٍ عن الحس، ولا مُقيدّةٍ به، أمكن أن تكون هذه القضايا طريقَه إلى المعرفة فيما يتعلَّق بما وراء المادة.

5. يستلزم قبولُ الرؤية المادية، وقصر النظر على الحِسِّ والحِسيّات، إخراجَ كثير من القضايا العلمية المقبولة حتى عند التجريبيِّين والمادِّيين أنفسهم عن حيِّز العلمية والمقبولية، مثال على ذلك: قانون الجاذبية، فإنَّ ما يناله الحسُّ والتجربة هو سقوط الأجسام من أعلى إلى أسفل، أما قوّة الجاذبية فإنَّما هي استنتاج بواسطة التحليل العقلي لتلك الجزئيات المشاهَدة بالحِسِّ، بل ثمّة كثير من القضايا الميتافيزيقية قد وقعت موقع قبول أو على الأقل موقع بحث العلماء على مختلف مذاهبهم المعرفية، ولو سلَّمنا بقَصْر المعرفة على الحِسِّيات، وعدم إمكانية إثبات

1 - علي دجاكام: الفلسفة الغربية برؤية الشيخ مرتضى مطهري، ص166.

2 - عبد الله محمدي ومجتبى مصباح: نظرية المعرفة، ص164.

المسائل الميتافيزيقية أو نفيها، لَما كان من حقِّ هؤلاء الخوضُ في النقاش حول هذه المسائل أو الحكم عليها، فضلاً عن إثباتها وقبولها[1]. ومن هذه الأبحاث موضوع اللاوعي أو العقل الباطن عند الإنسان، حيث كشف التحليل النفسي الحديث عن وجود بُعد آخر للإنسان، لا يلتفت الإنسان إليه بنحوٍ واعٍ، وإن كان له آثاره الخاصة التي تبرز في ظروفٍ معيَّنة، ومن أهمِّ علماء مدرسة التحليل النفسي الذين اكتشفوا وأثبتوا هذا البعد اللاواعي في الإنسان: (ألفرد إدلر 1937م - Alfred Adler) و(سيغموند فرويد 1939م - Sigmund Freud) و(كارل يونغ 1961م - Carl Jung). والمقصود أنَّ الكلام في إثبات العقل الباطن ونفيه وتحليله وفهمه بحثٌ خارج دائرة الحسِّ والمحسوس والتجربة.

ولهذا ينبغي الإقرارُ أنَّ الواقعية أوسَعُ دائرةً من الحسِّ، وأنَّ العقل البشري قادرٌ على الخوض في البحث عمّا وراء الطبيعة، وإنِ انطلق في بحثه من بديهيات العقل وآثار الأشياء ولوازمها.

6. إنَّ موقف (كانط) بالنسبة للميتافيزيقا وإخراجها عن دائرة العقل النظري لم يكن موقفًا حاسمًا نهائيًّا، بل يُذكر أنَّه كان مُتردِّدًا فيه، وأنَّه ظلَّ حتى أيامه الأخيرة يُشكِّك في جدوى تحويل الميتافيزيقا إلى علم. يُلاحظ مثلاً أنَّ (كانط) قد سلَّم بالبحث الميتافيزيقي في أطروحته عن صورة ومبادئ العالمين الحسي والمعقول (On the Form and Principles of the Sensible and Intelligible World)، أما نظريته الرافضة للميتافيزيقا التقليدية فقد ذكرها بشكلٍ أساس في كتابه المعروف نقض العقل المَحض (Critique of Pure Reason)[2].

7. لم يسدَّ (كانط) الطريقَ نهائيًّا على المعارف الميتافيزيقية، بل تقوم نظريته على التفريق بين العقلين النظري والعملي، والقاصر عن إدراك ما وراء الطبيعة هو العقل النظري، إلا أنَّه يؤكِّد إنَّ بعض القضايا الميتافيزيقية - وأهمهما وجود الله- يمُكن أن يُنال بواسطة العقل العملي، بل إنَّه نفسه يُثبت وجودَ الله كمُسلَّمة من مُسلَّمات العقل العملي فيما يُعرف بالبرهان الأخلاقي على وجود الله[3].

1 - حسن مكي العاملي: نظرية المعرفة، ص270.

2 - أرتشـيبال بومان: «الميتافيزيقا كما يراها كانط: معها وضدها في اللحظة عينها» & يوسـف كرم وإبراهيم مدكور: دروس في الفلسفة، ج1، ص461.

3 - يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، ص.ص. 211 و256.

7 - فصل الأخلاق عن الدِّين

رفع (فيليكس آدلر) شعارَ الاستغناء عن الدِّين في مجال الأخلاق، وعمل على التنظير لهذا المبدأ ونشره، وبَنى حركته الأخلاقية الواسعة على هذا الأساس[1]؛ لذلك يمُكن أن نعدَّ هذا المبنى الأكثر صراحةً وعلانيةً، وتأثيرًا في الحركة الأخلاقية التي أسَّسها (آدلر). لذلك يُصرِّح أتباعه أنَّه «لحفظ قيم الإنسان الثَّمينة لا بدَّ من فصلها عن الخرافات البالية والميتافيزيقيات المتُنامية»[2].

بل قد يكون هذا المَبنى هو الأكثرُ خطورةً على الأديان؛ فرغم أنَّ هذه الجمعيات تتبنَّى خطابَ الانفتاح وسعة الصدر وقبول الأديان المختلفة، وتدَّعي أنَّ موقفها محايد في القضايا الدِّينية والميتافيزيقية، إلا أنَّ هذا الفكر في الواقع يتحدَّى الدِّين وحقيقتَه وتعاليمَه، ويعمل على تجريد الدِّين من وظائفه وتهميشه وإبعاد الناس عنه، بدءًا من الأخلاق الدِّينية، وانتهاءً بالعقائد الدِّينية. وقد مرَّ في الفصل الأول أنَّ هذه الجمعيات تلبَّست بلباس الدِّين وتصدَّت للقيام بوظائفه وأداء دوره الاجتماعي في حياة الأفراد، كما نلاحظ في طقوسهم وجلساتهم ومواعظهم الشبيهة بما يَفعله المتُدِيِّنون.

ثمَّ إنَّ الحركة الأخلاقية، إذ تفصل بين الدِّين والأخلاق، تقوم في الواقع بتجريد الدِّين عن وظيفة أخرى من أهمِّ وظائفه، وهي الوظيفة الأخلاقية، بالتالي لا يخفى على المتُأمّأمِّل أنَّ هذه الحركةَ تمُثِّل امتدادًا للإنسانوية العلمانية، التي تدعو إلى فصل الدِّين عن الحياة والسياسة والأخلاق، وتنظر إلى الإنسان على أنَّه محور الكون ومرجع كلِّ الأحكام والقضايا، لذلك، نرى حركة (آدلر) مخالفةً لجوهر الدِّين وحقيقته، خاصةً الدِّين الإسلامي الأصيل، الذي نعتقد بامتداده زمانًا باعتباره آخِرَ الأديان، وجامعيَّتِه لكلِّ ما يحتاجه الإنسان في طريق سعادته.

لذلك، ينبغي مناقشة هذا المبنى ببيان العلاقة الصحيحة والمنطقية والوطيدة التي تربط الأخلاق بالدِّين، وبيان وجه حاجة الأخلاق إلى الدِّين للتوصُّل إلى نفي إمكانية استغناء الأخلاق عن الدِّين والفصل بينهما.

1 - محمد هادي طلعتي: الهيومانية، ص267.

2 - Howard Radest: Toward Common Ground, p. 1.

8 - المناقشة

أ - العلاقة بين الدِّين والأخلاق

يمكن بدوًا تصوُّر أربعة أنواع من العلاقة بين الدِّين والأخلاق، نستعرضها إجمالاً للتوصُّل إلى بيان العلاقة الصحيحة الحاكمة بين الدِّين والأخلاق[1]:

1. اتحاد الدِّين والأخلاق: ويُراد بهذا العنوان ما يَعُمُّ العلاقةَ العينية من جهة، بأنْ يُقال إنَّ الدِّين عينُ الأخلاق، والأخلاق عينُ الدِّين، فلا تفاوُتَ بينهما أصلاً، ويعمُّ كذلك العلاقة الاشتقاقية من جهةٍ أخرى بالادّعاء أنَّ الدِّين مشتقٌّ ومستنتجٌ بتمامه من الأخلاق، أو أنَّ الأخلاق مأخوذةٌ بتمامها من الدِّين، بحيث تكون النسبة بينهما العموم والخصوص المُطلَق.

2. استقلالية الدِّين والأخلاق: يرى هذا الاتجاهُ أنَّ الدِّين مستقلٌّ عن الأخلاق، فكلٌّ منهما يُلبِّي حاجةً من الحاجات البشرية، وله نطاقه الخاص المنفصل عن نطاق الآخر. فقد يُقال إنَّ مهمة الدِّين هي تنظيم العلاقة الفردية الروحية بين الإنسان والله، أما مهمة الأخلاق فهي تنظيم علاقة الإنسان بغيره من البشر.

3. التَّعارُض بين الدِّين والأخلاق: يدَّعي بعضُ الباحثين أنَّ هناك تَنافيًا وتعارضًا بين الدِّين والأخلاق، بحيث لا يُمكن اجتماعُهما؛ فإمّا أن يكون الإنسان ملتزمًا بالقيم الأخلاقية، وإما أن يكون متديّنًا مؤمنًا. ويشمل هذا العنوان بشكلٍ أساسي الاتجاهَ الإلحادي اللاديني[2]، الذي يُريد من إبراز التعارُض بين الدِّين والأخلاق إقصاءَ الدِّين وتهميشَه، بحجة معارضته للأخلاق الإنسانية.

4. الانسجام والتكامل بين الدِّين والأخلاق: والمقصود من الانسجام أنَّ الدِّين والأخلاق مختلفان مفهومًا ومصداقًا (نفي العينية)، إلا أنَّهما مرتبطان بعضهما ببعض على الصعيدين العلمي والعملي، فيقع بينهما تفاعل وتأثير متبادل (نفي الاستقلال)، ولا يُمكن أن يقع التعارض بين الأخلاق الفاضلة والدِّين الحقِّ، بل يجتمعان ويشتركان معًا (نفي التعارض).

وهذه هي العلاقة الصحيحة الحاكمة بين الأخلاق والدِّين، فرغم أنَّ الأخلاق بنفسها ليست دينيةً شرعيةً إلا أنَّها ليست مستقلةً عن الدِّين تمامًا، بل هي محتاجةٌ إلى الدِّين من جهاتٍ مختلفة.

---

1 - مصطفى عزيزي: الدِّين والأخلاق، ص47.

2 - وهو اتجاه أمثال (نيتشه - Nietzsche) و(فرويد - Freud) و(ماركس - Marx) و(فويرباخ - Feuerbach).

ب - حاجة الأخلاق إلى الدِّين

يمكن بيان وجه حاجة الأخلاق إلى الدِّين من جهاتٍ ثلاثة:

1. المباني الأخلاقية: لكلِّ اتجاه أخلاقي مبانٍ فكرية يقوم عليها ويتشكَّل على أساسها، وهذه المباني بشكلٍ أساسيٍّ إما معرفية ابستمولوجية أو وجودية انطولوجية أو إنسانية انثروبولوجية؛ لذلك يقدِّم الدِّين مبانيه الخاصة التي يُثبتُها عن طريق العقل والنقل[1]. مثلاً من أهمِّ المباني الدِّينية بيانُ الغاية النِّهائية الحقيقية للإنسان، وهي تحصيل السعادة الحقيقية بالقرب من الله -تعالى-، كذلك تعريف حقيقة الإنسان التي تتمثَّل ببُعده المجرَّد المَعنويِّ الذي يتطلَّع إلى عوالم الغيب والقرب الإلهي، كما أنَّ الكرامة الإنسانية والحياة الأخروية تُعدّان من جملة المبادئ الأساسية التي لا يُمكن التغاضي عنها في التفكير الفلسفي الدِّيني.

ولتوضيح تأثير المباني الدِّينية على الاتجاه الأخلاقي الذي يسلكه الدِّين نذكر مثالاً يتناول أحد أهم الأبحاث في فلسفة الأخلاق، وهو التعارض بين "المصلحة" و"الحقيقة"، إذ نرى الفطرة البشرية تمَيل إلى جلب المنافع الشخصية والمُشتَهَيات النفسيّة على أساس غريزة "حبِّ الذات"، وفي المقابل تسلِّم أكثرُ المذاهب الأخلاقية بلزوم طلب الحقِّ والحقيقة والصَّواب وفِعل الحَسَنِ وترك القبيح؛ فماذا لو تعارض الميل إلى المصلحة مع الميل إلى الحق، واضطرَّ الإنسان إلى اختيار أحدهما، وهذه الموارد كثيرةٌ جدًّا في حياة الإنسان، فهل يكذب مثلاً طلبًا للمصلحة، أم يصدق طلبًا للحقِّ وإن ناله الضرر؟ لا شكَّ أنَّ هذا التَّنازُعَ سيشكِّل قلقًا واضطرابًا فكريًّا وعمليًّا للفرد والمجتمع ما لم تتمَّ معالجته، وقد عالج الدِّين فعلاً هذه المُعضلةَ على أساس مبانيه ومعتقداته. خلاصة هذا الجمع هو أنَّ المصلحة الحقيقية الدائمة للإنسان تكمن في اتِّباع الحق والحقيقة؛ فالمصالح المُعارِضة للفعل الأخلاقي هي مصالح متوهَّمة مؤقتة زائلة، واتِّباع الحقِّ والصواب لا يكون سببًا للضَّرر البتّة، بل هو طريق المصالح الحقيقية التي ينالها الإنسان في الحياة الأخروية[2].

1 - لا بدَّ من الالتفات إلى أنَّ الفكر الأخلاقي العلماني في كثيرٍ من الحالات لا يصرِّح برفضه للأديان، بل يقتصر على تجريدها من بعض وظائفها كالوظيفة السياسية أو الأخلاقية.

2 - محمد باقر الصدر: فلسفتنا، ص55.

2. الكشف: ثبوتًا تتَّصف الأفعال بالحُسن والقُبح ذاتًا، وليس الدِّين هو الذي يَجعلها حسنةً أو قبيحةً، وهذا ما يُعرف بنظرية «الحُسْن والقبح العقليَّين» التي يقول بها العدلية في الإسلام، لكن يقع السؤال في مقام الإثبات: أنَّه هل العقل الإنساني قادرٌ على كشف جميع الأحكام الأخلاقية بشكلٍ لا لبس فيه؟ وبعبارةٍ أخرى، هل يمكن للإنسان وصف أيِّ فعلٍ من الأفعال التي يُواجهها بالحُسن والقبح دون تردُّدٍ؟ لا يخفى أنَّه لا يمكن لأحدٍ أن يدَّعي هذه القدرة للعقل البشري، خاصةً إذا لحظنا العناوين الفرعية، وموارد التعارض بين الأحكام الأخلاقية المختلفة، يُؤيِّد ذلك الوجدان الذي يقف في كثيرٍ من الحالات موقف الشكِّ والتَّردُّد في الحكم الأخلاقي، كما يؤيِّده اختلاف البشر في هذه الأحكام، وعدم اتِّفاقهم على وصف بعض الأفعال بالحُسن أو القبح. مثلاً: إذا كان قتل الإنسان البريء ظلمًا قبيحًا فهل قتل المعتدي كذلك؟ وهل قتل المجرم الذي يشكِّل تهديدًا للمجتمع كذلك؟ هل الإجهاض فعلٌ أخلاقيٌ أم لا؟ ماذا لو شكَّل الحمل خطرًا على الأم؟ هل قتل الطفل فور ولادته له الحكم نفسُه؟ لو توقَّفت نجاة إنسانٍ على قتل آخر فهل يَسوغ قتله أم لا؟ ماذا لو توقَّفت حياة عدّة أشخاص على ذلك؟ هل الكذب قبيحٌ مُطلَقًا؟ ماذا لو أدَّى الصدق إلى أذية إنسانٍ بريءٍ ظلمًا؟ هل الإحسان إلى الوالدَين مطلوبٌ حتى لو كانا ظالمَين؟ هل استعمار شعبٍ ما واستغلاله طلبًا لمصالح شعبٍ آخر فعلٌ أخلاقيٌ أم لا؟

لا نقول إنَّ العقل البشري عاجزٌ عن إدراك أيِّ موردٍ من موارد الأحكام الأخلاقية، لكن نرى أنَّه يقف حائرًا أمام كثيرٍ من الأسئلة التي يُواجهها الإنسان في حياته، بل حتى لو استطاع ترجيح أحد الطَّرفين الحُسن والقبح أو الانبغاء وعدم الانبغاء، إلا أنَّه لن يصل في كثيرٍ من الحالات إلى القطع بذلك بما يؤمِّن له الدافع الكافي للإقدام على العمل أو تركه، ويحقِّق له إرضاء وجدانه وضميره الأخلاقي.

لذلك من أهمِّ وظائف الدِّين الأخلاقية بيانُه للموضوعات الأخلاقية وأحكامها، خاصةً في المصاديق والجزئيات التي تُشكِّل مورد الابتلاء العملي للإنسان، فيأمره مثلاً ببرِّ الوالدِّين الظالمين، ويُبيح له الكذبَ إذا زاحمَت مصلحةَ الصِّدقِ مصالحُ أَوْلى وأهمُّ، ويَنهى عن أذية الآخرين وسلبهم حقوقَهم، ويعدُّ كلمةَ "أُفٍّ" للوالدِّين قبيحةً لا ينبغي قولُها، ويُحدِّد موارد جواز القتل وشروطه ككونه في مقام الدِّفاع ... إذن لا يُمكن للإنسان أن يكتفي بمعرفته أنَّ العدل حسنٌ والظلم قبيح وأمثال ذلك من العناوين الكلية، ولا يُمكن أن يستكمل منظومته وحياتَه الأخلاقيَّتَين

من دون إرشاد الله العالِم بحقيقة الإنسان وأفعاله وآثارها ومآلاتها، وهذا ما يُقوِّم به الدِّين[1].

3. ضمانة التطبيق: رغم أنَّ العقل قادرٌ على إدراك الكثير من الأحكام الأخلاقية، ووصف الأفعال بالحُسن والقبح، إلا أنَّه ينبغي التمييز بين مقامي الحكم ومقام الفعل؛ إذ لا رابطَ لزوميّ بين حكم الإنسان بحُسن فعلٍ معيَّنٍ وبين الإقدام على فعله، خاصةً إذا لحَظنا التزاحُمَ الذي كثيراً ما يحصل بين الحُسن والخير من جهة، والمصلحة الشخصية من جهةٍ أخرى، كما في حالة التزاحم بين استقباح السرقة والرغبة بتحصيل الثروة، أو بين استقباح الكذب والخوف من الضَّرر الشخصي، أو استحسان مساعدة الآخرين والميل إلى الراحة والدَّعة، هل حكم العقل كافٍ في ترجيح الحكم الأخلاقي دائمًا والتزام الحقِّ والخير والحسن؟

ولا يخفى أنَّه ما من داعٍ من دعاة الأخلاق والفضائل، أو مُنظِّرٍ في فلسفة الأخلاق، يكتفي بفهم الإنسان للحُسن والقبح وإدراكه النظري للأحكام الأخلاقية، دونَ أنْ يَعتني بتحلِّي الأفراد فعلاً بالفضائل الأخلاقية، والقيام بالفعل الحسن، والإعراض عن القبيح عمليًّا، لذلك، ينبغي البحث عن ضمانات إجراء الأحكام والقيم الأخلاقية، بل يمُكن أن يُقال إنَّ القانون الأخلاقي يفقد اعتباره وأهميته وفائدته في ظلِّ فقدان ضمانة التطبيق؛ كما يَصير التشريع القانونيُّ عبثًا ما لم يخرج إلى مرحلة التنفيذ[2].

الضامن الحقيقي والكافي لتطبيق الأحكام الأخلاقية هو الدِّين الإلهيُّ، بأبعاده المختلفة الفقهية والاعتقادية والأخلاقية، لذلك، حتى (كانط) الذي يقول بإطلاق الأحكام الأخلاقية، وبعجز العقل النظري عن إثبات وجود الله، يرجع إلى القول بأنَّ الاعتقاد بوجود الله للإثابة على الحَسَن والمعاقبة على القبيح أمرٌ ضروري، بما يُعدُّ ضمانًا للتعهُّدات والالتزامات الأخلاقية[3].

ويُشكِّل الدِّين ضمانةً لتطبيق الأخلاق والتقيُّد بها بواسطة تحكيم العاطفة الدِّينية الداعية للفضيلة، وتقديم الأسوة الحسنة، وتشريع المنظومة القانونية الفقهية المَبنيّة على القواعد الأخلاقية، ومخاطبة الإنسان بلسان الثَّواب والعقاب.

---

1 - محمد سربخشي: أخلاق سكولار: مفاهيم، مبانٍ، أدلة، نقدها، ص136.

2 - نفس المصدر، ص142.

3 - مصطفى عزيزي: الدِّين والأخلاق، ص155.

وبهذا يتبيَّن أنَّ الحركة الأخلاقية، التي تَدعو إلى فصل الأخلاق عن الدِّين، تُواجِه تحدِّياتٍ نظريةٍ وعمليةٍ كبيرة، لا يمُكِنها أن تتجاوزها دون العودة إلى الله الخالق للإنسان، فهو القادر على تأمين كافة احتياجاته، والجمع بين ميوله المختلفة، بمراعاة أبعاده الطبيعية والاجتماعية والأخلاقية والدِّينية.

خاتمة

تناوَل المقال مسألةَ الحركة الأخلاقية عند (فيليكس آدلر) عرضًا ونقدًا، وقد توصَّلنا إلى النتائج التالية:

- تُنسب هذه الحركة إلى (آدلر) (1933 م) الألماني الأصل، الذي نشأ في أسرةٍ يهودية قبل أن يتَّخذ منحًى فكريًّا خاصًّا.
- أسَّس (آدلر) «جمعية الثقافة الأخلاقية» في «نيويورك» عام 1876م، التي شكَّلت انطلاقة «الحركة الأخلاقية» أو الثقافة الأخلاقية التي برزت على شكل جمعياتٍ أخلاقية في مدنٍ مختلفة.
- تهتمُّ الحركة بالعنصر الأخلاقي، وتعدُّه أساسًا في العلاقات الإنسانية، وتسعى لترويج الأخلاق ونشرها، ومعالجة المشاكل الاجتماعية.
- تقول الحركة بالفصل بين الدِّين والأخلاق، وترى أنَّ الإنسان مُستغنٍ عن الدِّين في المجال الأخلاقي.
- تصرِّح الحركة أنَّ موقفها محايدٌ في القضايا الدِّينية، فتتقبَّل العقائد المختلفة، وتضمُّ أعضاءً يعتنقون أديانًا ومذاهب وآراءً متنوِّعة.
- تُصنَّف الحركة على أنَّها ذات اتِّجاهٍ إنسانويٍّ علماني؛ إذ تدعو إلى الاهتمام بالإنسان وأخلاقه، وإلى فصل الأخلاق عن الدِّين.
- يتضمَّن فكرُ «الحركة الأخلاقية» الاعتقادَ بتعدُّدية الأديان، ورفض وحدة الحقِّ.
- يلزم من القول بتعدُّدية الأديان رفضُها جميعًا وإفراغها من فاعليتها ودورها الفكري والعقائدي.

- كما يستند فكر الحركة إلى مبدأٍ معرفيٍّ يقول بعدم إمكانية إثبات المسائل الميتافيزيقية.
- لا يستقيم هذا المبنى معرفيًّا؛ لأنَّ الواقع أوسع من المادة، والطريق إلى كشفه يَشمل الحسَّ والعقل، بما يُتيح للإنسان التعرُّف إلى جملةٍ من القضايا الميتافزيقية.
- من المباني الأساسية للحركة القولُ بفصل الأخلاق عن الدِّين، وعدم الحاجة إلى الدِّين فيما يرتبط بالبعد الأخلاقي للإنسان.
- العلاقة بين الدِّين والأخلاق هي علاقة الانسجام والتكامل لا المباينة ولا العينية ولا التعارُض.
- تحتاج الأخلاق إلى الدِّين في المباني الفكرية والمعرفية، وفي الكشف عن أحكام الأفعال، وفي ضمانة تطبيقها.
- من المناسب تخصيصُ مقال آخر لمناقشة الحركة الأخلاقية من حيث الآثار العملية، برصد النتائج التي توصَّلت إليها بعد قرنٍ ونصفٍ من نشاطها الأخلاقي بمعزلٍ عن الدِّين.

لائحة المصادر والمراجع

باللغة العربية

1. الرمّاح، ابراهيم، الإنسانوية المستحيلة، مركز دلائل، الرياض، ط2، 1439هـ. ق.

2. السبحاني، جعفر، رسائل ومقالات، مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)، قم، ط1، 1421هـ. ق.

3. الصدر، محمد باقر، فلسفتنا، دار الصدر، قم، ط4، 1436هـ. ق.

4. بومان، أرتشيبال، «الميتافيزيقا كما يراها كانط: معها وضدها في اللحظة عينها»، مج(9) عدد(3)، مجلة الاستغراب، ص.ص. 36-55، 1439هـ. ق.

5. توماس، هنري، بزرگان فلسفه، ترجمة: فريدون بدره‌ای، انتشارات كيهان، طهران، لا ط.، 1345هـ. ش.

6. حسيبة، مصطفى، المعجم الفلسفي، دار أسامة، عمان، ط1، 2009م.

7. دجاكام، علي، الفلسفة الغربية برؤية الشيخ مرتضى مطهري، ترجمة: أسعاد مندي الكعبي، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، النجف، ط1، 1438هـ. ق.

8. سربخشي، محمد، أخلاق سكولار: مفاهيم مبانٍ أدلة نقدها، مؤسسه آموزشى و پژوهشى امام خمنى (ره)، قم، ط2، 1400هـ. ش.

9. سعد، أحمد ممدوح، التعددية الدِّينية، مؤسسة طابة، القاهرة، لا ط.، د.ت..

10. طلعتي، محمد هادي، الهيومانية، ترجمة: حسن علي مطر، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، النجف، ط 1، 1443هـ. ق.

11. عزيزي، مصطفى، الدِّين والأخلاق، مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث، كربلاء، ط1، 2023م.

12. كانط، ايمانويل، تمهيدات، ترجمة: غلامعلي حداد عادل، مركز نشر دانشگاهی، طهران، ط1، 1367ه. ش.

13. كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1986م.

14. كرم، يوسف، ومدكور، إبراهيم، دروس في الفلسفة، عالم الأدب، بيروت، ط1، 2016 م.

15. محمدي، عبد الله، ومصباح، مجتبى، نظرية المعرفة، ترجمة: مصطفى داوود، دار المعارف الحكمية، بيروت، ط1، 2020م.

16. محمود، زكي نجيب، موقف من الميتافيزيقا، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، يورك هاوس- المملكة المتحدة، 2019م.

17. مكي العاملي، حسن، نظرية المعرفة، مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)، قم، ط4، 1437هـ. ق.

باللغة الإنجليزية

1. Brown, Stuart, Collinson, Diane, and Wikinson, Robert. n.d. Biographical Dictionary of Twentieth-Century Philosophers 2nd ed, لندن: Routledge.

2. The Editors of Encyclopedia. 2023 a. "Ethical Culture." Encyclopedia Britannica.

3. ———. 2023 b. "Felix Adler." Encyclopedia Britannica.

4. Steelwater, Eliza. 1998. "Humanism." In Encyclopedia of Applied Ethics. California: Academic Press.

5. "Mission and Vision." n.d. The American Ethical Union. https://aeu.org/who-we-are/mission-vision/.

6. Radest, Howard B. 1969. Toward Common Ground: The Story of the Ethical Societies in the United States. New York: Frederick Ungar Publishing Co.

7. Black, Algernon. n.d. "What Is an Ethical Society?" Westchester Community for Ethical Culture. https://ethicalsocietywestchester.org/frequently-asked-questions/.